كَيْفَ نَسْتَخْرِجُ مَوضُوعَاتٍ لِلبُحُوثِ العِلْمِيَّةِ؟

سؤالٌ طَرَحَـه طُلَّابُ الدِّرَاساتِ العُلْيَا

في قِسْمِ البَلاغَةِ والنَّقْدِ في جَامِعَةِ الأَزْهَر

ويُجِيبُ عَنْه:

فَضِيلَةُ الأُسْتَاذِ الدُّكْتور

مُحَمَّد مُحَمَّد أبو مُوسَى

أُسْتَاذُ البَلاغَةِ والنَّقْدِ في كُلِّيَّةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِالقَاهِرَة

عُضْوُ هَيْئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ بالأَزْهَرِ الشَّرِيف

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرتُ وكرَّرتُ أن كلام العلماء عِلْمٌ ومَنْبَهَةٌ لعِلْم، يعني: فيه عِلْمُهم وفيه إشارةٌ إلىٰ عِلْمٍ لم يكتبوه، وإنَّما عِلْمُهم نفسُه مَنْبَهَةٌ إلىٰ عِلْمٍ مسكوتٍ عنه، ويجب علىٰ من يأتي بعدهم أنْ يفتحَ أبواب العِلْم الذي نبَّهوا إليه، وهذا هو معنىٰ «امتداد العِلْم» و«اتِّساع العِلْم»، ولن أذهب بعيدًا في بيان هذا، وإنما سأدلُّ عليه من دَرْسِي الذي قُلْتُه الآن، ودَرْسِي ليس فيه عِلْمٌ لي، وإنَّما هو شَرْحٌ لكتاب «دلائل الإعجاز»، والمَنْبَهَةُ التي تفتح لنا أبوابًا مُتَّسعِةً من العلم في هذا الكتابِ نفسِه.

كنتُ أشرح في باب «الفَرْق بين الإخبار بالفعل والإخبار بالاسم»، ثم فروق الخبر بين الإخبار بالاسم الذي يكون مرَّةً نكِرة، ومرَّةً معرِفة، ومعاني الألف واللام في الخبر، وتقديم الخبر وتأخيره.. إلىٰ آخر ما في الباب، وعبد القاهر يكتب هذا تحت عنوان «دلائل الإعجاز»، ولم يُسَمِّ الكتاب «إعجاز القرآن» كما سمَّىٰ الرُّمَّانيُّ والخَطَّابيُّ والباقِلانيُّ.. وغيرُهم، وإنَّما سمَّاه «دلائل الإعجاز»، وتسميةُ الكتاب ليست مَبْنيَّةً علىٰ التَّساهُل والتَّسامُح، وإنَّما لها مقاصد لا بُدَّ من الوَعْي بها، ثُمَّ إنَّ عبد القاهر لم يَدْرُس في هذا الكتاب إلا الأبوابَ الآتية: التقديم، والحذف، والفرق بين الإخبار بالفعل والإخبار بالاسم، والقَصْر، والفَصْل والوَصْل، فكيف تكون دراسةُ هذه الأبواب دلائلَ إعجازٍ؟

ويَلْزَمُ قبل الإجابة أنْ أشيرَ إلىٰ أمرٍ أكَّده عبد القاهر، هو أنَّ طرائق تأليفِ الكلام وتركيبِه، التي هي هذه الأبوابُ وما يُشْبِهُها، هي بابُ وطريقُ معرفةِ فَضْلِ كلامٍ علىٰ كلام، وأنَّنا لو ذهبنا في كُلِّ جِهَةٍ لنبحث عن سِرِّ فَضْلِ كلامٍ علىٰ كلام

فلن نَجِدَ إلا التأليفَ والتركيبَ الذي لا يكون إلا للإبانة الدَّقيقة عن المعاني، وأنَّ صَانِعَ التركيبِ والتأليفِ هو المعاني نفسُها؛ لأنَّها هي التي تتطلَّب ألفاظَها، وأحوالَ ألفاظِها.. إلىٰ آخر هذا الباب؛ فدِرَاسةُ التأليفِ والتركيبِ تَعْنِي دراسةَ الألفاظ والمعاني، وليس البيانُ إلا هذا، ثُمَّ إن عبد القاهر كما قَطَعَ القولَ بأنَّه لا طريقَ لمعرفة فَضْلِ كلامٍ علىٰ كلامٍ إلا بدراسة التأليفِ والتركيبِ، قَطَعَ القولَ بأنَّه لا طريق لمعرفة إعجاز القرآن إلا بمعرفة فَضْلِ كلامٍ علىٰ كلام، وأنَّ الذي لا يعرف فَضْلَ كلامٍ علىٰ كلامٍ لن يستطيعَ أنْ يعرف فَضْلَ كلامِ الله ﷻ علىٰ كُلِّ كلام، وهذه حقائقُ ظاهرةٌ، والعِلْمُ بها مُؤكَّد، ولم أَجِدْ في علماء الأُمَّة بعد عبدالقاهر مَنْ نَقَضَ حَرْفًا من هذه الحقائق.

وبقليلٍ جدًّا من التَّفْكيرِ الذي هو من تَمَامِ الفَهْمِ تُطِلُّ علينا المَنْبَهَةُ التي تفتح لنا أبوابًا من البحث لا حُدُودَ لها، وأنا لا أُبالِغ؛ لأنَّ المبالغةَ في بيان عِلْمِ أَهْلِ العِلْمِ مَفْسَدةٌ. ولاحظ أن فَضْلَ كلامٍ علىٰ كلام، وفَضْلَ شاعرٍ علىٰ شاعر، وفَضْلَ كلامِ سيدِنا رسول الله ﷺ علىٰ كلام قومه، وفَضْلَ كلامِ الله ﷻ علىٰ كُلِّ كلام = كُلُّ هذا لا معنىٰ له إلا الموازنات، وأنَّك إذا حلَّلتَ ديوان الشاعر كَلِمةً كَلِمةً تكونُ قد أَحْسَنْتَ فَهْمَه، ولكنَّك بعيدٌ عن بيان فَضْلِه علىٰ غيره؛ لأنَّ فَضْلَه علىٰ غيره، أو فَضْلَ غيرِه عليه، لا يَظْهَرُ إلا بالموازنة التي أساسُها التَّحليلُ الدَّقِيقُ المؤسَّسُ علىٰ أبواب هذا الكتاب، ولن يَتَّسِعَ بحثٌ للموازنة بين شاعرَيْن أو كاتبَيْن في ضَوْءِ تحليل مواقع هذه الأبواب جميعًا في الدِّيوانَيْن، وليس أمامَنا إلا أنْ نَدْرُسَها بابًا بابًا في الموازنة؛ فنَدْرُسُ مثلاً: «فروق الخَبَر عند الأَعْشَىٰ وأَوْسِ بن حَجَر»، أو عند زُهَيْرٍ والنَّابِغَة، أو عند أبي تَمَّامٍ ومُسْلِمٍ، أو عند البُحْتُرِيِّ وأبي نُوَاس، أو عند أبي الطيِّبِ وابْنِ خَفَاجَة، وهكذا تدور علىٰ العُصُور، وتدور علىٰ الشُّعَراء، وعلىٰ الكُتَّاب، وأنْ توازن بين شاعرَيْن أو كاتبَيْن

في طريقة «التقديم» أو «الحذف»، أو ما شئت ممَّا لا يكون الكلامُ كلامًا إلا به، وأنا قلت مثلاً بين الأعْشَىٰ وطَرَفَة، ثم بين طَرَفَةَ وأَوْس، ثم بين الأعْشَىٰ وبَشَّار، ثُمَّ.. ثُمَّ.. إلىٰ ما لا نهايةَ له. وإذا قلتُ لك إنَّ الذي لا نهايةَ له هو من تَمَامِ فَهْمِ كتاب «دلائل الإعجاز» فلا تظنَّ أَنِّي أَتزَيَّد، ورَاجِعْ وتَدَبَّرْ وستجدُني أَخْتَصِرُ الكلام اخْتِصارًا، وقد قرأتُ بالأمس كَلِمةً لـ«الرَّافِعيِّ» عن «عبد الحميد الكاتب»، ووَصَفَه بأنَّه من كبار بُلَغَاء النَّاس، وسألتُ: أيُّ دراسةٍ بلاغيةٍ دارتْ حول شيخِ كُتَّابِ العربيَّة الذي هو «عبد الحميد»؟ وقُلْ مِثْلَه في أكثر الكُتَّاب وأكثر الشعراء، ولا بُدَّ أنْ نلاحظ شيئًا، هو أنَّ التأليفَ والتركيبَ الذي هو اختيارُ الكلمات وأحوال الكلمات من تعريفٍ وتنكيرٍ.. إلىٰ آخره، ومواقع الكلمات من ذِكْرٍ وحَذْفٍ.. إلىٰ آخره = لم يكن هو سبيلَ التَّفاضُلِ إلا للمعاني التي جاءت فيها هذه التراكيب، وأنَّ التعريف هنا أَغْزَرُ بالدِّلالة، وأنَّ التقديم هنا يختبئ وراءه خاطرٌ دقيقٌ، أعني أنَّ البحث في التراكيب يبحث في خواطرِ ومقاصِدِ ومعاني أصحاب هذه التراكيب، ولا يجوز لعَاقِلٍ أنْ يتكلَّمَ في التنكير مثلاً إلا مِنْ أَجْلِ أنْ يستخرج سرًّا من أسرار نَفْسِ قائله، وهذا يعني أنَّ أساليب التقديم عند «بشَّار» لا محالةَ مختلفةٌ في دلالاتها عن التقديم عند غيره، ولو كان التقديمُ عندهم سواءً لكان كُلِّ الشِّعْر سواءً، وهكذا قُلْ في كُلِّ كَلِمةٍ في الشِّعْر أو النَّثْر. المطلوب هو استخراج الذي وراءها؛ لأنها لم يَجْرِ بها لِسَانُ قائلها إلا للعِبَارة عن معنىٰ، بل أكثر من ذلك نقول في رَنِينِ الكلمات وتلاؤمِها في النَّسَق. إنَّ هذا الرَّنِينَ وهذا التَّلاؤمَ الصَّوْتيَّ له دِلالة، وقديمًا عَدَّ «الرُّمَّانيُّ» التَّلاؤمَ الصَّوْتيَّ في الكِتَاب العزيز وَجْهًا من وجوه إعجازه، وذَهَبَ الرَّافِعيُّ وعبد الله دراز إلىٰ قريبٍ من ذلك.

قُلْتُ إنَّ أيَّ بحثٍ لا يَتَّسِعُ للموازنة بين شاعرين إلا في طريقٍ واحد؛ كالتوكيد، والإنشاء، والتقديم.. إلىٰ آخره، ولا قيمة لهذه البحوث ما لم تَكْتَشِفْ

السِّرَّ الذي وراء هذه الأحوال، ثم يُلاحَظُ شَيءٌ هو من الأهميَّة بمكان، وهو أنَّ علماءنا لمَّا تكلَّموا في أسباب التقديم أو التعريف أو التنكير إنَّما قالوا ما قالوا علىٰ سبيل المثال وليس علىٰ سبيل الحصر؛ فقد تَجِدُ في التعريف شيئًا لم يُنبِّه أحدٌ إليه؛ لأنَّك رَجَعْتَ إلىٰ الأصل الذي استُخْرِجَتْ منه البلاغةُ، وقد قالوا ما قالوا للذي استخرجوه، ولا يزال البيانُ مَكْنونًا علىٰ ما هو مَكْنُونٌ عليه، بل إنَّ الأحوالَ والأحداثَ وتجارِبَ الأزْمِنَة ربما كانت عونًا علىٰ إنطاق هذا المَكْنُونِ الذي بَقِيَ صامتًا في الكلام منذ أن قِيل.

وقد سألَنِي طالبُ عِلْمٍ عن قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾: لماذا قدَّم «فُجورَها» علىٰ «تَقْوَاها» و«تَقْوَاها» هو الأكرمُ والأفضلُ، فقلتُ له ما قلتُ، فقال لي: لماذا لم تَقُل لي إنَّ هذا التقديمَ يُفِيد أنَّ الوصولَ إلىٰ «تَقْوَاها» هو أنْ تَنْجُوَ من «فُجُورِها»؛ فإذا كنتَ قادرًا علىٰ قَهْرِ «فُجُورِها» وَصَلْتَ إلىٰ «تقواها»؛ فاستَحْسَنْتُ ذلك جدًّا، وقلتُ إنَّ الكلامَ لا تزال فيه خَمَائرُ ودَقَائقُ وخَوَاطِرُ وأسْرَارٌ غير التي استخرجها سادتُنا العلماء، والذي لَحَظَ هذه الملاحظة في الآية لم يكن عبقريًّا ولا لوذعيًّا، وإنَّما فقط كان يُفَكِّر.

ومن المَنْبَهَةِ التي تستخرجها من كلام عبد القاهر أنَّه بدأ بـ«أسرار البلاغة»، ولم يتكلَّم فيه في الإعجاز، وقال – بعد حَمْدِ الله، والثَّناء عليه، والصَّلاةِ والسَّلامِ علىٰ صَفْوَتِه مِنْ خَلْقِه، صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليه – إنَّه وَضَعَ هذا الكِتَابَ ليستطيع دَارِسُه أنْ يَحْكُمَ بين الكلامَيْن بالحَقِّ والقِسْطَاسِ وصَائِبِ المِيزَان، يعني أنَّ أَوَّلَ صفحةٍ له في البلاغة تقول لنا: إنَّ عِلْمَ البلاغة هو الموازنة بين الأقوال والأشعار، وأنَّ فَهْمَ كلامِ البلاغيين مِنْ غَيْرِ هذه الموازنة هو فَهْمٌ مُعلَّقٌ في الهَوَاء، ومُعطَّلٌ، وبَعِيدٌ عن الذي كان له، وهو دَرْسُ البيانِ والموازنة بينه، ثُمَّ إنَّ الكِتَابَ ليس فيه إلا التَّشبيهُ والتَّمْثيلُ والاستعارةُ والمَجَازُ العقليُّ والفُرُوق

بين هذه الفنون. والمَنْبَهَةُ التي وراء ذلك هي القَوْلُ بأنَّ الموازنة بين الشُّعَراءِ والكُتَّابِ تبدأ بهذه الفنون؛ لأنَّها أَظْهَرُ، والعِلْمَ بها أَقْرَبُ، والوُصُولَ إلىٰ خَبَايَاهَا أَيْسَرُ، وكأنَّه مِنْ وراء الغَيْبِ يقول لنا: دَرَسْتُم تشبيهاتِ فُلانٍ وفُلان، وقارَبْتُم أنْ تَسْتَقْصُوا شُعراءكم، ولكنَّكم لم تَدْرُسُوا موازنةً واحدةً، مع أنَّ أَوْسَعَ كِتابٍ في تُراثِكم اسمُه «الموازنة»، فأين تذهبون؟!

والتَّشبيهُ وإخوانُه مِمَّا يَتَأَثَّرُ بالزَّمَان والمَكَان، والأَجْدَرُ والأَجْدَىٰ أنْ يَبْدأ الطَّالِبُ المُبْتَدِئُ في الموازنة بين شاعرَيْن في التَّشبيه والمجاز والكناية، وكُلُّها فنونٌ مُسْتقاةٌ من الزَّمان والمَكَان، أقول: يبدأ بالموازنة في التَّشبيه مثلاً أو المجاز بين شاعرَيْن في زمانَيْن مختلفَيْن، كـ«التشبيه بين طَرَفَة وابن المُعْتزِّ»، أو بين فُلانٍ من شعراء الجاهليَّة وفُلانٍ من شعراء الأندلس، وأَقَلُّ ما يجب أنْ تُعلِّموه لطلاب العلم هو تطوُّرُ التَّشبيه بين الجاهليين والأندلسيين مثلاً، ولماذا بقيت تشبيهاتُ سيدِنا رسول الله ﷺ في أَلْسِنَةِ النَّاس، وذهبَ أكثرُ تشبيهاتِ قومِه عليه السلام؟، فضلاً عن تشبيهاتِ القرآن التي لم يتخلَّف منها حَرْفٌ وَاحِدٌ، أيُّ شيءٍ مات من تشبيهات الشمَّاخ وأيُّ شيءٍ بَقِي؟، ولماذا مات الذي مات وبَقِيَ الذي بَقِي؟، ومِثْلُ هذا يُقال في كُلِّ كاتبٍ، وكُلِّ شاعرٍ، وفي كُلِّ عَصْرٍ، وفي كُلِّ أَرْضٍ، لماذا تعيشون مع طُلَّابكم في قُمْقُمٍ وكُتُبُ علمائكم التي في أيديكم تَشْرَعَ لكم أبوابًا، وتَضَعُ لكم في سمائكم نُجومًا لعلَّكم تَهْتَدُون؟

قُلْتُ لطُلَّابي وأُكرِّر: إنَّ بَحْثَ أيِّ بابٍ من أبواب البلاغة في كتب البلاغة لا يحتاج إلا إلىٰ أيَّام قليلةٍ جدًّا، وبَحْثَه في ديوان شاعرٍ يحتاج إلىٰ أَضْعَافِ هذه الأَيَّام، ثُمَّ لا تُدْرِكُه إدراكًا حقيقيًّا إلا بجِدٍّ واجتهادٍ وطَبْعٍ وقُدْرةٍ علىٰ التَّمييز.

وقُلْتُ: دَرَسْنَا التَّشبيهَ المُركَّبَ وتركناه هكذا في المُطْلَق، ولم نَدْرُسْ طريقةَ شاعرٍ في تركيب التَّشبيه وموازنة ذلك بغيره. وأَكْثَرُ من هذا: لم نَدْرُسْ مَذْهَبَ

محمود حسن إسماعيل في تركيب التَّشبيه والمجاز وصُور البيان، وكيف تفرَّد بذلك، وأيُّ شيءٍ فيه جَعلَه يتفرَّد: هل هو طبيعةٌ عقليةٌ؟، هل هو خيالٌ خاصٌّ؟، هل هو تعمُّقٌ في المعاني واقتناصِهَا من الأُفْقِ البعيد؟.

ولاحِظْ أنَّني لم أتكلَّم عن تطوُّر الأساليب، وكيف صار لكُلِّ زَمَانٍ سَمْتٌ في بناء كلامه؟

أين الدَّرْسُ البلاغيُّ حول بلاغَةِ الإمام عليٍّ – كرم الله وَجْهَه – ؟. لقد ذَكَر «الرَّافِعيُّ» أنَّ بلاغة النُّبوَّة بَقِيَتْ في آل بيتِه ﷺ إلىٰ أنْ كان ما كان؛ فأين الدَّرْسُ البلاغيُّ الذي يتتبَّعُ أَثَرَ بلاغتِه في آل بيتِه ﷺ، وذَكَرَ الرَّافِعيُّ أنَّ بلاغة الحَسَنِ البَصْرِيِّ رَاجِعَةٌ إلىٰ أنَّ أُمَّنَا أُمَّ سَلَمَةٍ رضي الله عنها أَرْضَعَتْه، فأين بَحْثُنا في كلامِ البَصْرِيِّ لاستخراج هذه البلاغة التي كان طريقُها الرَّضَاع، وكأنَّ الرَّضَاعَ كالنَّسِب حتَّىٰ في البيان.

الأستاذ الدكتور

محمد محمد أبو موسى

الثلاثاء ٤ من المحرم ١٤٤١ هـ = ٣ من سبتمبر ٢٠١٩م